# العصر العباسي الثاني بين سلطة النفوذ التركي و الزحف الزنجي

## (232هـ/ 334هـ) (847م-946م )

د. محمد عيساوي /أستاذ محاضر –أ-

جامعة محمد بوضياف المسيلة

الملخص:

يعالج المقال ملامح العصر العباسي الثاني ؛ وبالضبط أثر النفوذ التركي على سلطة الخلفاء العباسيين، و سيطرتهم على دواليب سلطة الخلافة، كما تم التطرق إلى حركات التمرد التي شهدها هذا العصر، وعلى رأسها حركة الزنج التي استمرت فترة طويلة من الزمن ، وأدت إلى خسائر مادية وبشرية ، ولكن في الأخير استطاع الجيش العباسي القضاء عليها.

***Abstract*:**

*The article deals with the features of the second Abbasid era; And precisely the effect of Turkish influence on the authority of the Abbasid caliphs, and their control over the wheels of the caliphate's authority, also touched upon the rebellions that took place in this era, headed by the Zinj movement, which lasted for a long period of time, and led to material and human losses, but in the end the Abbasid army managed Eliminate it.*

المقدمة:

شهدت فترة العصر العباسي الثاني و بصفة خاصة عصر النفوذ التركي عدة مؤثرات سياسية مفصلية، كان لها الأثر الحاسم على نظام الحكم الخاص بالخلافة العباسية، وعلى الظروف الاجتماعية كذلك ، وهذا ما ستتطرق إليه هذه الدراسة بإيجاز وتركيز، عبر الإجابة عن إشكالية رئيسة فحواها :ما هي أبرز التغيرات السياسية التي طرأت على الخلافة العباسية خلال عصرها الثاني ؟ وما هي أبرز أوجه الاختلاف بين العصر العباسي الثاني والأول؟ وما هو العنصر البارز الذي كان له الدور الفاعل في التأثير على سياسة الخلفاء العباسيين؟ وهل شهد العصر العباسي الثاني استقرارا سياسيا ؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية تم الرجوع إلى مصادر تاريخية مهمة على غرار كتاب تاريخ الرسل لابن جرير الطبري، وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير. وبخصوص

المراجع ، فقد تم الاعتماد بصورة كبيرة على كتاب محمد سهيل طقوش، والموسوم بكتاب تاريخ الدولة العباسية، وهذا في طبعته السابعة، و الصادرة عن دار النفائس، ببيروت ، كما تم الاستئناس بجملة من الأخرى على غرار ما كتبه عبد العزيز الدوري في كتابيه العصر العباسي الأول و دراسات في العصور المتأخرة.

أما بخصوص المنهج المتبع ، فيتمثل أساسا في المنهج التاريخي بمختلف آلياته الوصفية والتحليلية و المقارنة، و تم توظيفها ضمنيا بحسب طبيعة المباحث المدروسة.

1- طبيعة العصر العباسي الثاني : (232 هـ/ 334 هـ) (847م-946م )

يختلف العصر العباسي الثاني في كثير من مظاهره عن العصر العباسي الأول؛ فقد امتاز العصر العباسي الأول بقوة الخلافة، وتركيز السلطة في يد الخلفاء الذين اتَّصَفُوا بالبراعة السياسية، وقوة الشخصية. واستطاعوا المحافظة على العلاقات الوطيدة مع الشعوب التي ساندتهم في فترة التحضير للثورة، كما أبدوا كفاءة عالية في كبح جماح العناصر المتوثّبة والمتطلعة إلى النفوذ والسلطان، باستثناء ما حصل في الغرب الإسلامي. وتمكّنوا من إقامة نوع من التوازن بين التيارات السياسية المختلفة التي ظهرت بعد قيام الدولة، ومن الأمثلة على هذا الصنف من الخلفاء ، ما جرى في فترة حكم أبي جعفر المنصور و إسهاماته في توطيد أركان الخلافة العباسية[1] في العصر العباسي الثاني؛ حين انتقلت الدولة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحُكم،وقامت عدد من الدول انفصالية المستقلة استقلالا تامًّا أو جزئيا مع الاعتراف بسلطان الخلافة العباسية الرُّوحي، ودخلت عدد من الشعوب الجديدة في المجتمع الإسلامي،و تمكّنت من الوصول إلى سدة الحُكم، ووقع الخلفاء تحت تأثيرات نفوذهم مما أدّى إلى تقليل أثر دورهم السياسي الفاعل، ففقدوا سمات المكانة والهيبة والاحترام ، التي كان يتمتع بها أسلافهم خلفاء العصر العباسي الأول.[2]

ويبدو جليا أن مرد هذا التغير الجذري، يرجع إلى الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها دولة الخلافة العباسية في العصر العباسي الأول، وقد حملت معها بذور الانفصال، والاستقلالية[3]

2 - الأوضاع الداخلية لدولة الخلافة العباسية :

1.2. العلاقة مع الأتراك :

انتقلت عاصمة الخلافة العباسية من بغداد إلى سامراء، التي ظلّت ما يقرب من خمسين سنة حاضرة دولة الخلافة العباسية، وأضحت مقرًّا للعصبية التركية الجديدة. ومنذ عهد الخليفة المعتصم بدأت تبرز على مسرح الحياة السياسية شخصيات تركية أدت دورا كبيرا في الحياة العامة، لعل أبرزها الأفشين وأشناس وإيتاخ

ووصيف وسيما الدمشقي[4]. وقد خدموا الدولة وساندوها في حروبها الداخلية ضد الحركات المناهضة [5]التي نشبت في أجزائها المختلفة، وفي حروبها الخارجية ضد الإمبراطورية البيزنطية[6]. ومع مرور الزمن بدأ هؤلاء الأتراك يتوجهون إلى تكوين كيان خاص بهم سواء في كنف الخلافة أو منفصلا عنها، كما طمع بعضهم في الاستئثار بشؤون الحكم في العاصمة حين أدركوا أن الخلافة لا يُمكنها الاستغناء عن خدماتهم.[7]

وتعتبر خلافة الواثق بن المعتصم (227- 232 ه)(842 م – 847 م )[8] مرحلة انتقالية بين عهدين. الأول هو عهد سيطرة الأتراك على مقدرات الدولة مع بقاء هيبة الخلافة العباسية، والثاني هو سيطرة الأتراك مع زوال هيبة الخلافة وهبوط مكانة الخلفاء.[9]

ولقد ثبت الأتراك في عهد الواثق أقدامهم في الحكم، وحصل رؤساؤهم على نفوذ كبير، حتى اضطر الخليفة أن يخلع على أشناس لقب السلطان معترفا له بحقوق تتجاوز نطاق المهام العسكرية فكان بذلك أول خليفة استخلف سلطانا. وأسند إليه أعمال الجزيرة وبلاد الشام ومصر كما عهد إلى إيتاخ بولاية خراسان والسند وكور دجلة.[10]

2.2. ظهور نظام إمرة الأمراء:(324 ه – 334 ه) (936 م – 946 م )

لقد حدث تطوُّرٌ جديد في شؤون الحكم في عهد الخليفة الراضي حين بذلت محاولة أخيرة لإنقاذ الخلافة تناولت مركز الخلافة والوزارة ووضع الأتراك. وانتهى هذا التطور بظهور منصب أمير الأمراء الذي سيطر متقلده على مقاليد الحكم، وامتدت صلاحياته إلى الضرائب والإدارة فهيمن على الخلافة حتى أضحى الخليفة مجرد رمز ولم يَـعُد له من صلاحيات فعلية في ممارسة الحكم، وأزال نفوذ الوزراء، وتوقَّف الصراع بين الخلافة والأتراك الذي شغل جانبا كبيرا من العصر العباسي الثاني.[11]

وابتدأ هذا المنصب بالظهور في عام 324 هـ/ 936 م على حساب منصب الوزارة، ذلك أن الراضي استعان في إدارة شؤون دولته ببعض الوزراء الضعفاء ، عجزوا عن النهوض بأعباء ومتطلبات الوزارة، وفقدوا ما كان لهم من نفوذ، حتى أضحوا عرضة للتنكيل والمصادرة، ومن جهة أخرى، تراجع نفوذ الأتراك بفعل التفكُّك الذي ساد بينهم، و التنافس على مركز الصدارة، وتفشي الحسد بين قادتهم.[12]

وقد شعرت الخلافة نتيجة هذه الأوضاع المتردية بضعف الوزراء، وبعجز الأتراك، وبفراغ الخزانة؛ تتطلع إلى حكام الإمارات القريبة من العراق، لتستعين بهم على إنقاذ الموقف الذي بلغ درجة خطيرة من التدهور، فاستدعى الخليفة الراضي محمد بن رائق أمير واسط والبصرة وسلمه مقاليد الأمور، وأطلق يده في

سلطات الدولة كلها، ولقّبه أمير الأمراء ، وهذا المنصب هو عبارة عن نقل كل سلطات الخليفة إلى قائد فيه صفات الرئاسة المدنية والقيادة العسكرية.[13]

ويبدو أن نفوذ ابن رائق قد ضعف في عام 326 هـ/ 938 م بفعل منافسة الأمراء له، فقد حاربه أبو عبد الله البريدي حاكم الأهواز، بعدما ظهر خلاف بينهما و يؤرخ ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ له\ا فيقول :" ظَهَرَتِ الْوَحْشَةُ بَيْنَ ابْنِ رَائِقٍ وَالْبَرِيدِيِّ، وَكَانَ لِذَلِكَ عِدَّةُ أَسْبَابٍ مِنْهَا: أَنَّ ابْنَ رَائِقٍ لَمَّا عَادَ مِنْ وَاسِطَ إِلَى بَغْدَاذَ، أَمَرَ بِظُهُورِ مَنِ اخْتَفَى مِنَ الْحَجَرِيِّينَ، فَظَهَرُوا، فَاسْتَخْدَمَ مِنْهُمْ نَحْوَ أَلْفَيْ رَجُلٍ، وَأَمَرَ الْبَاقِينَ بِطَلَبِ الرِّزْقِ أَيْنَ أَرَادُوا، فَخَرَجُوا مِنْ بَغْدَاذَ، وَاجْتَمَعُوا بِطَرِيقِ خُرَاسَانَ، ثُمَّ سَارُوا إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَرِيدِيِّ، فَأَكْرَمَهُمْ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَذَمَّ ابْنَ رَائِقٍ وَعَابَهُ، وَكَتَبَ إِلَى بَغْدَاذَ يَعْتَذِرُ عَنْ قَبُولِهِمْ، وَيَقُولُ: إِنَّنِي خِفْتُهُمْ، فَلِهَذَا قَبِلْتُهُمْ، وَجَعَلَهُمْ طَرِيقًا إِلَى قَطْعِ مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ، وَذُكِرَ أَنَّهُمُ اتَّفَقُوا مَعَ الْجَيْشِ الَّذِي عِنْدَهُ وَمَنَعُوهُ مِنْ حَمْلِ الْمَالِ (الَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ) ، فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ ابْنُ كَالِئٍ خَيْلًا مُقَلِّدِينَ بِأَحَدِ قُلْحَةَ حَرْبِيَّةٍ فِي عَتَبَةِ كَرْخِ لَمْ يَفْعَلْ"[14] بغداد في عام 327 هـ/939 م، واستولى على مقاليد الأمور و آلت إليه إمرة الأمراء، أما ابن رائق فقد فرّ إلى بلاد الشام ، واستمر بحكم في منصبه زهاء ثلاثة أعوام وصلت فيها الحالة العامة إلى درجة خطيرة من الفوضى والتدهور، وقتل بحكم في عام 329 هـ/ 941 م بيد أحد الأكراد.[15]

وقبل مقتل بحكم بأربعة أشهر تقريبا مات الخليفة الراضي في بغداد و عمره اثنتان و ثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته سبع سنوات تقريبا، فتشاور أعيان الدولة وأفراد البيت العباسي فيمن يصلح للخلافة، فرشَّحوا جعفر بن المقتدر لهذا المنصب وبايعوه في العشرين من شهر ربيع الأول عام 329 هـ/ 940م ولُقِّب بالمتَّقِي.[16]

وكان المتقي (329 هـ 333 هـ ) (940 – 944 م ) مجرد ألعوبة في أيدي القادة المتنافسين على السلطة خاصة أبو عبد الله البريدي و ابن رائق و الحمدانيين، وانتقلت في عهده صلاحيات أمير الأمراء إلى يد البريدي الذي برز بعد مقتل بحكم، لكن دون أن يُقلده الخليفة تقليدا رسميا، وذلك بفعل مواقفه المتقلبة، واكتفى بأن جعله وزيرا، لكنه جمع إلى منصبه المدني قيادة الجيش، فأضحى في حكم أمير الأمويين[17] أنه عجز عن تلبية حاجات الجند ومطالبهم المتزايدة، وأضحى هدفا لدسائسهم ومؤامراتهم ، فاضطربت الأمور في بغداد واضطر إلى مغادرتها فعاد إلى البصرة، فتقلد ابن رائق المنصب مرة ثانية، بعد أن استدعي من بلاد الشام فتفاهم مع البريدي وقلَّده منصب الوزارة. وظلّ الأمر على ذلك مُدّة، ثم اختلف

الرجلان، فعزل ابن رائق البريدي من منصبه، فجمع هذا الأخير جيوشه وهاجم بغداد فاضطر الخليفة وابن رائق إلى الهرب والتجأ كل منهما بني حمدان في الموصل، واستولى البريدي على منصب أمير الأمراء ودخل بغداد مرّة ثانية. [18]

لكن البريدي وجماعته لم يظفروا بمحبة الناس بفعل إمعانهم في السلب والنهب، ومن جهة أخرى عين الخليفة ناصر الدولة الحمداني أميرا للأمراء في عام 330 هـ/942 م وأرسله على رأس جيش كثيف لمحاربة البريدي، فأخرجه من بغداد وعاد إليها الخليفة في العام المذكور. [19]

وبرز في هذه الأحداث القائد التركي توزون، فقلّده المتقي شرطة بغداد، ثم جعله أميرا للأمراء، وسيطر الحمدانيون في هذا الوقت على مقدرات الدولة في بغداد، لكن الوضع العام لم يتحسن بفعل استمرار النزاعات الداخلية، فاضطر هؤلاء إلى ترك حاضرة الخلافة، خاصة وأنهم خسروا الحرب التي نشبت بينهم وبين توزون، وعادوا إلى الموصل بصحبة الخليفة. [20]

ويعتبر توزون من أقوى الأمراء الذين تولوا الأمر في العصر العباسي الثاني، فقد استطاع هذا الرجل أن يستولي على الحكم من متنافسين قويين هما الحمدانيين والبريديين. وخشي من محاولة الخليفة التقرب من الإخشيديين في مصر، فتحايل عليه حتى عاد إلى بغداد مرة أخرى، فقدّم له فروض الطاعة ظاهريا،وأوعز سِرًّا إلى بعض أصحابه فقبضوا عليه وأجبروه على خلع نفسه، ثم سملوا عينيه وذلك في شهر صفر عام 333 هـ / 944م وسجنوه مدة خمس وعشرين سنة حتى تُـوُفِّي في عام 357 هـ / 968 م ، واختار توزون عبد الله بن المكتفي خليفة ولُقِّب ب" المستكفي". [21]

ولم تطل خلافة المستكفي (333 هـ / 334 هـ ) (944- 946 م ) فقد حكم سنة و أربعة أشهر استبد توزون خلالها بالسلطة، ثم خلفه ابن شيرزاد، وبقي في منصب أمير الأمراء، حتى استولى معز الدولة بن بويه على بغداد وألغى منصب أمير الأمراء. [22]

والواقع أن دولة الخلافة العباسية لم تستفد من هذا النظام الذي أنشأه الراضي لإقامة الخلافة من عثرتها، بل زادت أحوالها سوءا ، وأن من يستقصي عهد الراضي والمتقي والمستكفي يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تنقطع بين رجال الدولة العباسية، الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة و تولي إمرة الأمراء. [23]

3. حركة الزنج: (255 ه – 270 ه) (869م – 883 م )

1.3. طبيعة الحركة وأهدافها:

لا شك أن حركة الزنج الخطيرة التي قامت سنة 255 هـ، هددت وأنهكت الخلافة العباسية في الصميم ، قبل أن تقضي عليها تسترعي الانتباه، وتدعو الباحثين إلى سبر أغوارها من خلال التدقيق عن طبيعتها والبحث عن أهدافها ، ومكامن دوافع الاستجابة لها. [24]

وللوقوف على طبيعة الحركة، لابد لنا من سبر أغوار الفئات والعناصر التي أيدتها وشاركت فيها[25]. والواقع أن عماد هذه الحركة، تمثل في باد الأمر، ببعض العرب المغامرين من المهالبة والهمدانيين وغيرهم، أما الفئات التي شاركت فيها فهي متنوعة، الزنّج ، أهل القرى، العرب الضعفاء، عشائر عربية ثائرة على السلطة.[26] فيما يتعلق بالشخصية التي قادت هذا الحركة ، فهو علي بن محمد الفارسي الأصل،وهو شخصية تبعث على الحيرة فعلا، حيث يواجه الدارس مصاعب كثيرة في معرفة نسبه ، وهذا بسبب تقلُّباته السريعة، تبعا للظروف التي كان يَمُرُّ بها، واتصف بأنه رجل طموح ، وبعيد عن الزهد، لأنه شارك في السلب و النهب.[27] أن حياته كانت غير طبيعية، فقد بدأها كشاعر في بلاط الخليفة في سامراء، ثم حاول القيام بحركة ضد النظام في البحرين للوصول إلى الحكم، إلا أنه أخفق في تحقيق مبتغاه، فسلك نهجا جديدا، وظهر كقائد ديني ومتنبئ ، فادّعى نسبا علويا، محاولا أن يستثمر ما للشيعة من عطف وتأييد بين الناس، وقد أحلّه أتباعه من أنفسهم محلّ النبي حتى جُبِيَ له الخراج. [28]

ويبدو أن جماعة كثيرة العدد في البحرين قد تنكّرت له، مما دفعه إلى مغادرتها إلى البادية ليستقطب الأعراب، وادّعى فيها النسب الشيعي على أنه يحيى بن عمر أبو الحسين، فالتف حوله بعض الأعراب، استغلهم بإعادة السيطرة على البحرين، إلا أنه هُزم وفرّ إلى البصرة. [29]

ووقف أثناء إقامته القصيرة فيها على أوضاعها الداخلية والسياسية والاجتماعية،حيث كان المجتمع البصري منقسما على نفسه، فحاول أن يستغل هذه الخلافات لصالحه إلا أنه فشل،وفي الوقت نفسه، رأى في حياة العبيد فيها الذين يعملون في المستنقعات المجاورة، فرصة لتحقيق طموحاته،لكنه طُرِد منها،فذهب إلى بغداد.[30] وهناك ادّعى النسب العلوي في بغداد، فانتسب إلى أحمد بن عيسى بن يزيد ، ثم حاول الوثوب إلى السلطة مستغلا الأوضاع المضطربة في حاضرة الخلافة، ولكنه لم يتمكن من ذلك بفعل إحكام الأتراك قبضتهم على الوضع، فعاد إلى البصرة في عام 255 هـ / 869 م ليتزعم حركة ثورية، مُدّعِيًا أن الله أرسله لتحرير العبيد وإنقاذهم مما كانوا عليه من البؤس، كما ادّعى علم الغيب وانتحل النُّبُـوَّة. [31]

والواقع أن فكرة المهدي المنتظر قد رافقت علي بن محمد في جميع مراحل حياته السياسية، فاستغلها وهو بادّعائه المهدية، كان يضرب على وتر حسّاس في نفوذ جماعة العلويين، والذين برح بهم الشقاء،

يأملون ظهور مهدي منقذ يزيل عنهم الغمة، ويفرج عن أيامهم كربتها، وركّز كثيرا على عراقة أصلهن وكتبها على نقوده، وسمّى نفسه " المهدي علي بن محمد" المنقذ.[32]

وجهر علي بن محمد في إحدى مراحل حياته بمذهب الخوارج الذي تلائم مع مبادئه و ميول أصحابه، فحارب –حسب زعمه – من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة، وكتب شعاراته على الرايات باللونين الأخضر والأحمر وهما لون العلويين ولون الخوارج.[33]

ولقد تعارضت أفكار علي بن محمد عن الخلافة مع مفهوم الشيعة لها، التي تؤكد على الوراثة، وتبني رأي الخوارج القائم على الشورى، مما نفَّر منه الأعراب البسطاء، وعرب البصرة والأهواز وواسط والمناطق المحيطة به، كما رفض قرمط أن يرتبط معه بعوامل دينية، أما شدته و قسوته تجاه أعدائه، ففقد جعلته خارجيا متطرفا، يضاف إلى ذلك، فَقْدُ عامل أسرى الحرب معاملة الرَّقيق، ووعد أتباعه بأنه سيملِّكهم المنازل و العبيد، وهذا يعني تحويل حياة الزنج من أرقّاء إلى ملاكين للعبيد.[34]

والواضح أن هذا التناقض في عقيدة الحركة يفرغها من أي صيغة عقائدية، ويجعلها حركة مسلّحة ضد النظام، ليس إلاّ، كما يجعل من قائدها رجلا مغامرا طموحا إلى السلطة.[35]

ومما لاشك فيه أن طموحات علي بن محمد السياسية المتمثلة بالاستيلاء على السلطة، تعتبر الدّافع الحقيقي لحركته، مما حدّ من اندفاعها لدرجة كبيرة، وحصرها في فئة الزنج، وأبعد عنها تدريجيا الفئات الأخرى التي شاركت فيها.[36]

2.3. دوافع الاستجابة لها :

حرّكت هذه الجماعات المتعددة التي التفت حول علي بن محمد دوافع مختلفة منها:

- تحدّي الحكومة المركزية للخروج من دائرة البؤس والشقاء .
- الحصول على المغانم عن طريق السلب والنّهب.
- التحرر من العمل الشاق الصعب و من الفقر المدقع .[37]

أما دوافع الاستجابة الواسعة للحركة من قبل العبيد، فتكمن في ثلاثة اتجاهات: سياسية واقتصادية واجتماعية.

فمن حيث الدوافع السياسية، لقد سبق الزنج ورافقها نفوذٌ مارسه الأتراك على الخلافة، وقد عليهم الارتزاق، وانحصر نشاطهم في تقدير الوسائل التي تمكِّنهم من ضرب خصومهم ومنافسيهم، والاستئثار بالسلطة ، مما

إلى كثرة المؤامرات السياسية والانقلابات العسكرية، فانحدرت الخلافة إلى الحضيض، وغدا الخلفاء الإرادة . [38]

ونتيجة لتردي الأوضاع السياسية، اشتدّ ساعد المعارضة، الشيعية خاصة، فتعاظم النفوذ العلوي، وتغلغل بين الناس، وكان الاتجاه الحركي المعارض يُجيش منذ مطلع القرن الثالث الهجري ، فتكاثرت الحركات المناهضة للحكم المركزي ، وتعددت الحركات الانفصالية التي جاءت دليلا على أن الانحلال أخذ يدِبُّ في مركز الخلافة، فكان الجوُّ السياسي العام ملائما للرجال المغامرين، كي يفوزوا بالسلطان، في الوقت الذي كانت فيه المعركة على أشدها بين الحكومة المركزية والمعارضة العلوية، مع بروز حكام في بعض الولايات لم يعترفوا حتى اسميا بسلطة الخلافة، وراحو يعبرون عن أماني هذه الفئات المعارضة، إلى جانب صراع خفي بين الإقطاعية والعبيد، وجد متنفسا له في دعوة علي بن محمد الطامح إلى السلطة . [39]

ومن حيث العوامل الاقتصادية، تبرز أمامنا ظاهرتان؛ ظاهرة الأوضاع المالية المتدهورة، وظاهرة التكوين الطبقي للمجتمع العباسي ، ويمكن شرحهما في النقطتين التاليتين :

ففيما يتعلق بالظاهرة الأولى؛ فإن الأمور الملفتة للنظر في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة أن مالية الدولة كانت في تأخر مستمر بفعل تبذير الخلفاء و القادة الأتراك على أنفسهم، ومن مظاهر التعثر والانحطاط في مالية الدولة أن نظام الالتزام أو الضمان أضحى على ما يبدو النظام السائد، ومما زاد الأوضاع المالية تفاقما، فصل بيت مال المسلمين عن خزانة الخليفة الخاصة، ومع اشتداد نفوذ الأتراك، فقد وضعوا أيديهم على بيت المال، في حين انصرف الخلفاء إلى تنمية مواردهم الخاصة. [40]

أما فيما يتعلق بالظاهرة الثانية ، فقد كان المجتمع العباسي يتكون في القرن الثالث الهجري من ثلاث طبقات اجتماعية وهي كالتالي:

- 1- الطبقة الإقطاعية، وتتألف من الأسرة المالكة، والقادة الأتراك و الوزراء الأثرياء وأصحاب المناصب، ويملك أفرادها الأراضي، ويعتمدون على الزراعة كمصدر لثرواتهم، وقد تطورت أوضاعهم الاقتصادية تطورا كبيرا باتجاه التوسُّع و التكثيف، مما تطلب زيادة عدد العبيد الذين يعملون في هذا الحقل، خاصة في جنوبي العراق. [41]
- 2- طبقة التجار.
- 3- الطبقة العامة العاملة

وعرف أواسط القرن الثالث الهجري ازديادا في دور الإقطاع، وفي ضياع البصرة- حيث كان الزنج يشتغلون في الأراضي الموات، والتي كان عليهم استصلاحها وتجفيفها- تطلب زيادة الاعتماد على العبيد المجلوبين من شرقي إفريقيا، باعتبارهم أيدي عاملة رخيصة، وذات بنية قوية تصلح للعمل في تلك السباخ أو الأراضي الملحي، وقد تزامن ذلك مع ازدياد دور التجارة. فقام التجار بشراء العبيد بأثمان رخيصة، وباعوهم لملاك الأراضي في البصرة الذين حشروهم في تلك المنطقة.[42] واتسعت الهوة، مع مرور الزمن، بين هؤلاء و بين الطبقة الإقطاعية، وبلغ التناقض الاجتماعي مداه، مما كان دافعا للاستجابة لنداء الثورة، الذي أطلقه علي بن محمد.[43]

ومن حيث الدوافع الاجتماعية، فقد عاشت تلك الفئات من العبيد ظروفا معيشية شاقة وسيئة، فكان عليهم العمل في تجفيف المستنقعات وإزالة السباخ عن الأراضي ، ثم نقل الملح بواسطة الدّواب إلى حيث يُعرض ويبع؛ لقاء وجبة طعام تتألف من الدقيق والسويق والتمر، ما كانت لتشبع، كما حُشروا في مخيمات لا تتوافر فيها الشروط الصحية العامة، فتعرَّضُوا للأمراض الفتّاكة، كما تعرَّضُوا لضغط عوامل نفسية شديدة الوطأة بفعل أنهم كانوا عزابا أو متزوجين يعيشون بعيدين عن أسرهم .[44]

وقد دفعت هذه الأوضاع الاجتماعية المتردية، هؤلاء العبيد، إلى الاستجابة لنداء علي بن محمد الذي وعدهم بقيادتهم إلى الحرية، وأن يهبهم الأملاك، وأن يبقى مخلصا لهم حتى النهاية، مركزا على بؤسهم و سوء حياتهم، ومنّاهم بمستقبل رائع، ومنازل لإيوائهم .[45]

3.3. الاصطدام بالسلطة ونهاية الحركة :

وما زال الزنج يلتفُّون حول علي بن محمد حتى كان يوم الفطر، فخطب فيهم، وصلّى بهم، وأعاد إلى أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت، ومنَّاهم الأماني الطيبة، واتخذ من مدينة المختارة، التي بناها قاعدة انطلاق .[46]

وقد برهن على أنه قائد مقتدر؛ إذ تميزت حملاته بكفاءة استطلاعية، فتوفرت له دائما المعلومات عن تحركات جيوش الخلافة، وأعطته السياسة القتالية التي اتّبعها، والقائمة على نصب الكمائن، التفوق على قوات الخليفة[47]، فدخل البصرة عام 257 هـ / 871 وقتل سكانها وأحرقها.[48]

وكانت الخلافة آنذاك منهمكة في حرب يعقوب بن الليث الصفّار مما أعطى علي بن محمد فرصة والتوسع و التدمير، فسيطر خلال عشرة أعوام (255 هـ - 265 هـ) (869 م- 879 م) على رقعة واسعة تمتد بين الأهواز و واسط ، وباتت بغداد مهددة. و عندئذ عهد الخليفة المعتمد إلى أخيه أبي أحمد

طلحة، بمحاربة الزنج، فتولى هذا القائد قيادة العمليات العسكرية بنفسه، واستعمل كل ما لديه من إمكانيات سياسية واقتصادية وعسكرية ليكفل النجاح، فحاصرهم اقتصاديا ليضعف قدراتهم، فأحرق غلالهم ومؤنهم، وقطع التموين عنهم الذي كان يقدمه الأعراب لهم ، فأصابهم الجوع، وخارت قواهم، فاستسلمت أعداد كبيرة منهم، ومن حيث الصدامات العسكري، فقد تمكن الموفق من إجلائهم عن الأهواز، وفتح مدينتهم المختارة ، ثم توالت هزائمهم، وسقوط مدنهم الأخرى، حتى تم النصر النهائي عليهم في عام 270 هـ / 883 م ، وقُتل علي بن محمد إبان المعارك و استسلم من بقي من أتباعه. [49] ويقول الحافظ المؤرخ ابن الدمشقي في وصف هذا الانتصار الساحق والاحتفال البهيج على ثورة الزنج:" فِيهَا – أي في سنة سبعين ومائتين من الهجرة- كَانَ مَقْتَلُ صَاحِبِ الزَّنْجِ قَبَّحَهُ اللَّهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُوَفَّقَ لَمَّا فَرَغَ مِنْ شَأْنِ مَدِينَةِ الزَّنْجِ وَهِيَ الْمُخْتَارَةُ وَاحْتَازَ مَا كَانَ بِهَا مِنَ الْأَمْوَالِ، وَقَتَلَ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الرِّجَالِ، وَسَبَى مَنْ وَجَدَ فِيهَا النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ، وَقَدْ هَرَبَ صَاحِبُ الزَّنْجِ عَنْ حَوْمَةِ الْجِلَادِ وَالنِّزَالِ، وَسَارَ إِلَى بَعْضِ الْبِلَادِ طَرِيدًا حَالٍ، عَادَ الْمُوَفَّقُ – وَفَّقَهُ اللَّهُ – إِلَى مَدِينَتِهِ الْمُوَفَّقِيَّةِ مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا، وَقَدِمَ عَلَيْهِ لُؤْلُؤَةُ غُلَامُ أَحْمَدَ بْنِ مُنَابِذًا لِسَيِّدِهِ سَمِيعًا مُطِيعًا لِلْمُوَفَّقِ، فَكَانَ وُرُودُهُ عَلَيْهِ فِي ثَالِثِ الْمُحَرَّمِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، فَأَكْرَمَهُ وَعَظَّمَهُ وَأَعْطَاهُ وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَبَعَثَهُ طَلِيعَةً بَيْنَ يَدَيْهِ لِقِتَالِ صَاحِبِ الزَّنْجِ وَرَكِبَ الْمُوَفَّقُ فِي الْجُيُوشِ الْكَثِيفَةِ الْهَائِلَةِ وَرَاءَهُ، فَقَصَدُوا الْخَبِيثَ وَقَدْ تَحَصَّنَ بِبَلْدَةٍ أُخْرَى، فَلَمْ يَزَلْ مُحَاصِرًا لَهُ حَتَّى أَخْرَجَهُ وَهُوَ صَاغِرٌ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَى مَا كَانَ بِهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْمَغَانِمِ، ثُمَّ بَعَثَ السَّرَايَا وَالْجُيُوشَ وَرَاءَهُ. " [50]

وبإخماد الثورة[51]، أسدل الستار على هذ الحركة التي أقضّت مضاجع الخلفاء العباسيين، وكلّفتها الكثير من الجهود والأموال والأرواح، و التي دامت أكثر من أربعة عشر عاما (255 هـ - 270 هـ) (869-883م ) [52] ، ويؤكد هذا الأمر الحافظ ابن كثير بقوله :" وَقَدْ كَانَ ظُهُورُهُ فِي يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ لِأَرْبَعٍ بَقِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَقُتِلَ يَوْمَ السَّبْتِ لِلَيْلَتَيْنِ خَلَتَا مِنْ صَفَرٍ سَنَةَ سَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ. وَكَانَتْ دَوْلَتُهُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَسِتَّةَ أَيَّامٍ." [53]

خريطة تتبين انتشار ثورة الزنج[1]

[1] - سامي المغلوث، أطلس الدولة العباسية، العبيكان ، الرياض ، السعودية ، 1433هـ ، ص 172.

4.3. تقييم حركة الزنج:

لقد انطلقت حركة الزنج من واقع الألم والاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي بين مستنقعات البصرة وسهولها، وكانت بدايتها ناجحة انسجمت فيها أهدافها مع أفعالها، لكن النزعة الفوضوية التي طبعتها، وهي في قمة مواجهتها أدت إلى تقلُّص أبعادها الاجتماعية،وقد زاد من تلك النزعة، افتقارها إلى برنامج ثوري يصوغ تطلعات وأهداف القائمين بها،ويوضح العلاقة بين القادة والأتباع، كما يلاحظ أن رجالها استهدفوا الانتقام لا الإصلاح، والانقلاب الاجتماعي لا التقويم ؛ وأن قائدها لم يستطع أن يحرر ذاته من مسألة فكرة الزعامة القرشية، بالإضافة إلى أن أُطُرها الثورية كانت محلية ومحدودة، ولم تكن لديها تطلعات شاملة، وندرك من هنا عدم نجاح علي بن محمد في اكتساب قطاعات كبيرة من المجتمع العراقي، كالفلاحين وكبار الملاك والتجار والحرفيين، وحتى القرامطة، فأصبح العبيد بمفردهم ضعفاء رغم عددهم الكبير. [54]

ومن جهة ثانية؛ فإن سرعة الحوادث، وتصميم العباسيين على القضاء عليها، لم يعطيا قائدها مهلة لتنظيم صفوف قواته، وتمكنه من بناء مجتمع مستقر ذي أنظمة خاصة، لذلك ، كان من الطبيعي أن تفقد هذه

طابعها الإنساني و الثوري مما دفعها إلى نهايتها المحتومة، لكن قاعدتها الثورية التي تشتت استطاعت أن إحدى الدعائم الأساسية التي دفعت الحركة القرمطية إلى الظهور فيما بعد. [55]

وَقِيلَ فِي أَمْرِ الْمُوَفَّقِ، وَأَصْحَابِ الزِّنْجِ أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَسْلَمِيِّ:

أَقُولُ وَقَدْ جَاءَ الْبَشِيرُ بِوَقْعَةٍ ... أَعَزَّتْ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا كَانَ وَاهِيَا

جَزَى اللَّهُ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ بَعْدَمَا ... أُبِيحَ حِمَاهُمْ خَيْرَ مَا كَانَ جَازِيَا

تَفَرَّدَ، إِذْ لَمْ يَنْصُرِ اللَّهَ، نَاصِرٌ ... بِتَجْدِيدِ دِينٍ كَانَ أَصْبَحَ بَالِيَا

وَتَجْدِيدِ مُلْكٍ قَدْ وَهَى بَعْدَ عِزِّهِ ... وَأَخْذٍ بِثَارَاتٍ تُبِينُ الْأَعَادِيَا

وَرَدِّ عِمَارَاتٍ أُزِيلَتْ وَأُخْرِبَتْ ... لِيَرْجِعَ فَيْءٌ قَدْ تُخُرِّمَ وَافِيَا

وَتَرْجِعَ أَمْصَارٌ أُبِيحَتْ وَأُحْرِقَتْ ... مِرَارًا فَقَدْ أَمْسَتْ قِوَاءً عَوَافِيَا

وَيَشْفِي صُدُورَ الْمُسْلِمِينَ بِوَقْعَةٍ ... يُقِرُّ بِهَا مِنْهَا الْعُيُونَ الْبَوَاكِيَا

وَيُتْلَى كِتَابُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ ... وَيُلْقَى دُعَاءُ الطَّالِبِيِّينَ خَاسِيَا

فَأَعْرَضَ عَنْ أَحْبَابِهِ وَنَعِيمِهِ ... وَعَنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَأَصْبَحَ غَازِيَا[56]

الخاتمة:

- شكل العنصر التركي أبرز مؤثرات النفوذ على مطلع العصر العباسي الثاني .
- تجلى نظام إمرة الأمراء كأحد أبرز الشواهد التاريخية على غلبة النفوذ التركي في العصر العباسي
- الغالب.الزنج وقود حركة تمرد في العصر العباسي الثاني، وهم بذلك تم استغلالهم بطريقة بشعة مرتين ؛ ففي المرة الأولى تم استغلالهم في حقول تجفيف المستنقعات، والمرة الأخرى في حركة تمرد تضليلية هددت البلاد والعباد.
- أدت حركة الزنج إلى زعزعة الاستقرار السياسي للخلافة العباسي ، كما شكلت مصدر رعب بالنسبة للساكنة ، بسبب ما تتسم به الحركة من سفك للدّماء و سلب ونهب لمقدرات الأمة وخيراتها في ذلك الوقت.
- استنزفت الخلافة العباسية العديد من الجيوش خلال محاولتها إخماد فتنة حركة الزنج إلا أن تم الظفر بانتصار ساحق على هذه الحركة.
- تعتبر مسألة إدعاء " المهدية " ، و " النسب العلوي " قاسما مشتركا لدى كثير من المتمردين في التاريخ الإسلامي خلال العصر الوسيط.

- تعكس المدة التي استغرقتها حركة الزنج - وهي أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَسِتَّةَ أَيَّامٍ – مدى قوة هذه الحركة ، ونجاحها في التأثير على أتباعها الزنوج ، واستفادتها بالإمداد من مؤيديها .
- عبد العزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، شركة الرابطة للطباعة والنشر، مطبعة السريان، بغداد، العراق، 1945.
- عبد العزيز الدوري ، العصر العباسي الأول، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1997 م .

---

الهوامش:

1 - للمزيد من الشواهد على ذلك أنظر : عبد العزيز الدوري ، العصر العباسي الأول، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1997 م ، ص 55-83

محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، الطبعة السابعة، دار النفائس، بيروت ، لبنان ، 1430هـ/ 2009 م ، ص 156

2 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 156.

3 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 156.

4 - عبد العزيز الدوري ، العصر العباسي الأول ، المرجع السابق ، ص ص 177 – 189.

5 - و من الأمثلة على ذلك حركة بابك الخرمي ، المازيار .

6 - عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، ص ص 193 – 198.

7 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 161 .

8 - خلافة الواثق بن المعتصم :بُويِعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ قَبْلَ أَنْ مَاتَ أَبُوهُ الْمُعْتَصِمُ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ لِثَمَانٍ خَلَوْنَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، أَعَنِي سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَيُكَنَّى بِأَبِي جَعْفَرٍ، وَأُمُّهُ أُمُّ وَلَدٍ رُومِيَّةٌ يُقَالُ لَهَا: قَرَاطِيسُ. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية،تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان،الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م. ج 14 ، ص 289.

9 - عبد العزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، شركة الرابطة للطباعة والنشر، مطبعة السريان ، بغداد، 1945 م ، ص ص 34- 40 ؛ محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 161 .

10 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 161 .

11 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 168- 169 .

12 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 169.

13 - و من النماذج التي تؤرخ على استعانة الخلفاء العباسيين بالأتراك ، ماجرى في سنة 325هـ في المحرم منها ، حينما خرج الخليفة الراضي وأمير الأمراء محمد بن رائق من بغداد قاصدين واسطا ; لقتال أبي عبد الله البريدي نائب الأهواز، الذي قد تجبر بها، ومنع الخراج،أنظر للمزيد : ابن كثير ، البداية والنهاية، المصدر السابق، ج 15 ،ص 103 ؛ محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 169.

14 - أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، المصدر السابق،ج 07، ص 61 .

15 - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج 07، ص 61؛ محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 170.

16 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 170.

17 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 170.

18 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 171 .
19 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 171 .
20 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 171 .
21 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 171 -172 .
22 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 172 .
23 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 172 .
24- عبد العزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، المرجع السابق ، ص ص 75- 76.
25 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 172 .
26 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 172 – 173 .
27 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص173 .
28 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص173 .
29 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص173 .
30 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص173 .
31 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص173 – 174 .
32 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 174 .
33 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 174 .
34 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 174 .
35 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 174 -175.
36 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 175.
37 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 175.
38 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 175.
39 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 175- 176 .
40 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 176 .
41 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 176 .
42 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 177.
43 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 177.
44 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 177.
45 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 177.
46 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 178.
47 - أبو جعفر الطبري محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية - ١٣٨٧هـ، ج 09 ، ص 431.
48 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 178.
49 - أبو جعفر الطبري محمد بن جرير، المصدر السابق، ج 09،ص 654. محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 178.
50 - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ،البداية والنهاية،المصدر السابق، ج 14، ص 584.

51 - من المصادر التاريخية المهمة التي أرّخت لانتهاء حركة الزنج بطريقة دقيقة و مفصلة كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، أنظر للمزيد: أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ٤١٧ هـ / ١٩٩٧م، ج 06 ، ص 420- 425.

52 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 178.

53- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، المصدر السابق، ج 14، ص 585.

54 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 179.

55 - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص 179.

56 - أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، المصدر السابق، ج 06 ، ص 425.